البلاغة العربية في ظل التوجهات المعرفية المعاصرة

Arabic rhetoric in light of contemporary epistemological trends

أ. هدى بن عزيزة

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة

الملخص:

لم تعد البلاغة بعد الثورات اللسانية المعاصرة تتلخص في جملة من العلائق الجامدة المنفصلة عن الخطابات الأدبية والعلمية والفلسفية، ولا أقيسة يحكمها منطق متحجر يكرر نفس التقاسيم والشروح لتسهيل عملية الاستيعاب لدى التلاميذ والطلبة، ولا مجرد أسلوب للزخرفة والتزيين، يعتمد مقياس الصواب والخطأ، ولا عبارة عن محفوظات ببغاوية تتردد بين الشفاه، مفصولة عن النظام الفكري الذي نشأت فيه وترعرعت، بل تطمح لأن تصير علما عاما للخطاب (الخطابات)، بل وعلما مستقبليا لجميع فروع المجتمع (المجتمعات).

الكلمات المفاتيح: البلاغة العربية، اللسانيات، الأسلوبية، التداولية.

Abstract :

After the contemporary linguistic revolutions, rhetoric is no longer summarized in a set of rigid relationships separated from literary, scientific and philosophical discourses, and no analogies governed by a fossilized logic that repeats the same divisions and explanations to facilitate the process of comprehension among students and students, nor is it just a method of decoration and decoration that adopts the measure of right and wrong, and not They are archives of a prostitute that echoes between the lips, separated from the intellectual system in which they were brought up and raised, but rather aspire to become a general science of discourse (discourses), and even a future science for all branches of society (societies).

Key words : Arabic rhetoric, linguistics, stylistics, pragmatics.

مقدمة

لم تعد البلاغة العربية بعد الثورات اللسانية المعاصرة تتلخص في جملة من العلائق الجامدة المنفصلة عن الخطابات الأدبية والعلمية والفلسفية، ولا أقيسة يحكمها منطق متحجر يكرر نفس التقاسيم والشروح لتسهيل عملية الاستيعاب لدى التلاميذ والطلبة، و"لا مجرد أسلوب للزخرفة والتزيين"[1]، "يعتمد مقياس الصواب والخطأ"[2]، ولا "عبارة عن محفوظات ببغاوية تتردد بين الشفاه"[3]، فالبلاغة العربية بقيت "في الدراسات القديمة والحديثة مفصولة عن النظام الفكري الذي نشأت فيه وترعرعت"[4]، ولهذا انتقلت" من معرفة مبتذلة وفارغة ينادي الكثير بموتها (**ڤيرلين- هوجو**) إلى معرفة رائدة تطمح لأن تصير علما عاما للخطاب (الخطابات)، بل وعلما مستقبليا لجميع فروع المجتمع (المجتمعات)"[5]. بل أصبحت إجراء عمليا يحتل مكانة "جوهرية في العملية الإبداعية "[6]، وممارسة إقناعية/حجاجية تغذيها قيم ومعتقدات، ورموز، وطقوس ثاوية في الوجدان الجماعي للغة، وفاعلية نفسية وفكرية وإيديولوجية تجد جذورها في الثقافة والمجتمع والإنسان، وهي إذ تتحدد بوصفها فنا للإقناع أو الإمتاع، أو أداة للفهم والإدراك، فإنها تندرج داخل سياق اجتماعي وثقافي ونفسي يشكل نسيجا من العادات والسلوكيات والممارسات اللغوية والرمزية.

ولقد كان للوعي العميق بخطورة أهمية البلاغة (البيان) في بناء الخطاب، وبنية العالم، "ما يجعلها تحضر، بقوة، في معظم الحقول المعرفية انطلاقا من الفلسفة والمنطق والأدب إلى اللسانيات والسيميائيات والتداوليات وغيرها. وهذه القفزة الكوبرنيكية* جعلتها تتخلى عن نزعتها المعيارية، المتمثلة في فرض القواعد من أجل إنتاج الخطاب، إلى نزعة وصفية تهتم برصد الوقائع من أجل تحليلها" [7]. فأصبح البلاغي لا يكتفي بدراسة بعض العلاقات التي قد تمكنه من تصنيف بعض الظواهر الأسلوبية، ووضعها في قوالب باعتبارها وصفات جاهزة لكل من أراد أن يكتب أو

ينقد أو ينظر، بل أصبح على النقيض من ذلك يبحث في العلاقة بين هذه "الظواهر ومستويات الإدراك" [8]، بين تمظهراتها المجازية والبنية النفسية، بين الفاعلية الثقافية والاجتماعية، وكيفية اشتغال المعرفة والايديولوجيا عبر الترددات الاستعارية، والكنائية، والرمزية[9]... متخذا عالم الخطاب في تعدده: الخطاب العلمي، الخطاب الأدبي، الخطاب اليومي، الخطاب السياسي، الخطاب الديني، ... مجالا لاشتغاله، ومرتكزا لا للكشف عن شكل الخطاب وحسب، ولكن للكشف أيضا عن تشكيل ذهن الإنسان، إذ إن اكتشاف هذا الأخير أصبح، في نظر العديد من الدارسين، منوطا باكتشاف الأنساق الرمزية التي تغذيه وتحتويه، وهكذا لم تعد الإشكالية البلاغية إشكالية وصفية وحسب، بل أصبحت إشكالية تفسيرية / فلسفية تتضافر علوم متعددة للإحاطة بها، كما أن القضايا المطروحة لم تعد تنحصر في طريقة البحث عن تمايز الأشكال واشتغالها، بل تحولت لطرح أسئلة تكوينية génétique جديدة من نمط: كيف يتبين الفكر مجازيا؟ كيف يشتغل اللاشعور استعاريا وكنائيا؟ كيف تنمو الأسطورة في اللغة؟ كيف يتأسس ويتطور الخطاب العلمي المجرد؟ وما هو الأثر الذي تتركه الصيغ اللغوية على الرؤية التي يحملها الإنسان عن العالم؟ كيف تشتغل المجازات داخل مختلف أجناس الخطاب؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي وجدت طريقها إلى دراسات وأبحاث المهتمين.

إن العلم المعرفي science cognitive الذي عاد ليستثمر " المنهاجية الأرسطية والأفلاطونية والجشتالطية" [10] في إطار الأبحاث الإستعارية المتداولة اليوم للعلم الذي "يسعى إلى إعادة النظر في مكونات الإنسان ووضعه وعلاقته بالطبيعة وبغيره من الناس"[11]، هو " علم ذو أبعاد عميقة ومرام شاسعة تتجلى في الأسئلة التي يطرحها والموضوعات التي يعالجها، وفي العلوم والمعارف الأخرى التي يتقاطع معها ويتداخل، فهو يطرح الأسئلة التالية: كيف يتعلم الناس معاني الكلمات والمقولات الطبيعية؟ كيف يحصل التواصل مع الأخر؟ كيف يدرك المعنى؟ ما المعنى؟ كيف يبدع الناس؟

وهو يعالج موضوعات شاسعة ومتنوعة مثل تحليل الخطاب وحل المشكل واكتساب اللغة وتكوين المفهوم والتمثيل الذهني وعلم الدلالة والتكوين المعرفي والمعالجات البصرية..."[12].

وإذ يمزج هذا العلم بين عدة " فروع أخرى من المعرفة كالفلسفة وعلم النفس المعرفي والذكاء الاصطناعي"[13]، فلأنه يسعى من وراء هذا المزج " إلى أدراك كنه كيفية اشتغال الدماغ والفكر البشريين، والى التعرف على الآليات التي تسعف الإنسان لإنتاج المعرفة والتصرف في أهم أداة لها وهي اللغة الطبيعية، ولذلك انكب هؤلاء العلماء بمختلف تخصصاتهم على صياغة نظرية أو نظريات ملائمة لمعالجة اللغة الطبيعية من حيث مفرداتها وتراكيبها وعلائقها ومجال تداولها ومنطوقها ومفهومها والمصرح به والمستنبط..." [14]

وإذا كانت هذه الأبحاث تعتبر في تعقدها وتشعبها امتدادا لأسلوبية عامة، وهي بدورها امتداد للبلاغة الكلاسيكية، فمن الممكن التمييز في هذا الإطار، وعلى غرار ما قام به **بيير جيرو**[15]، بين أربعة اتجاهات أسلوبية متفاعلة هي:

أ- أسلوبية نصية، نقدية تفسيرية موضوعها تقويم ووصف آثار الأسلوب أو تأويله، وتتميز هذه الأسلوبية في تعددها كونها لا تختزل الخطابات إلى رزم من المتواليات اللغوية المنعزلة بعضها عن بعض، ولكن تنظر إليها تارة في شموليتها النصية، أي بوصفها كلا لا يقبل التجزؤ، وتارة أخرى تنظر إليها بوصفها عملا لا يتحدد كنهه إلا في علاقته مع القارئ ، وهو ما عبر عنه **ميكائيل ريفاتير** بقوله:

"إن الظاهرة الأدبية ليست النص فقط، ولكنها قارئ النص ومجموع ردود فعل القارئ الممكنة تجاه النص، أيضا، إنها الملفوظ والتلفظ" [16].

ب- أسلوبية للغة، وموضوعها تصنيف آثار الأسلوب حسب المقولات التي تولدها، وهي على ثلاثة أنواع:

1- أسلوبية وصفية موضوعها وضع جرد من القيم الأسلوبية، أي جرد من الأدوات البيانية وغير البيانية، تقدمها اللغة إلى الكاتب المبدع من خلالها نصوصا مخصوصة ومتميزة على المستوى الأدبي.

2- أسلوبية وظيفية تهتم بدراسة القيم الأسلوبية تبعا لضرورات التواصل الخاصة، أي تبعا لضرورات الجنس بمعناه الواسع.

3- أسلوبية تكوينية génétique ويميز فيها بين مستويين:

أولا: أسلوبية تهتم بدراسة الأدوات الأسلوبية الخاصة بكاتب ما أو بمجموعة من الكتاب، أو ربما بمجموعة من الخطابات اليومية العادية، ولكن ليس باعتبارها زخارف تضفي على النصوص، بل بوصفها فاعلية فكرية ونفسية، قد تكشف عن روح الكاتب التي هي امتداد لروح الأمة، ومن أقطاب هذه النظرية، على اختلاف أسسها، نجد: كارل فوسلر، ليوسيتزر، داماسو ألونسو، شارل بالي وغيرهم.[17]

ثانيا: أسلوبية كرست جهودها لبلورة نظرية أو نظريات استفادت بآخر ما توصلت إليه الأبحاث اللسانية، والتداولية، وعلم النفس، والتربية، والاجتماع، والأنثروبولوجيا ...

هذا، وتحتل الإشكالية البيانية داخل هذه الأسلوبية مكانة بارزة جدا، فقد خصها الباحثون باهتمام بالغ، وكرسوا لها آلافا من المؤلفات والدراسات المتعددة المشارب المعرفية، وهكذا نجدهم يعمدون من خلال استثمار مختلف المناهج والنظريات، "هي التشبيهية والابدالية والتفاعلية والتناقضية والتركيبية وشبه التضادية" [18]إلى أن يحيطوا بكل أبعادها وعلائقها، ومكوناتها، ونظرياتها، بل وأن يتوقفوا عند أشكال تعالقاتها بالإدراك والمعرفة والواقع، فقد ذهب الكثير منهم إلى أن العامل مبنين استعاريا، وإلى أن المجاز، بصفة عامة، يشكل أداة "مفهومية للإدراك، أو لخلق الواقع، وليست مجرد وصف له" [19]، وهو ما عبر عنه **جورج لايكوف ومارك**

جونسن بقولهما: "إن التصورات التي تتحكم في تفكيرنا ليست ذات طبيعة ثقافية صرف. فهي تتحكم، أيضا، في سلوكاتنا اليومية البسيطة بكل تفاصيلها. فتصوراتنا تبنين ما ندركه وتبنين الطريقة التي نتعامل بواسطتها مع العالم، كما تبنين كيفية ارتباطنا بالناس. وبهذا يلعب نسقنا التصوري دورا مركزيا في تحديد حقائقنا اليومية. وإذا كان صحيحا أن نسقنا التصوري، في جزء كبير منه، ذو طبيعة استعارية فإن كيفية تفكيرنا وتعاملنا وسلوكاتنا في كل يوم...، **ترتبط بشكل وثيق بالاستعارة**" [20].

اِنطلاقا مما سبق، نستنج أن الاستعارة عند أصحاب المقاربة المعرفية هي انعكاس لنسق من التّصورات للعالم من حولنا حيث تمكّننا من فهم شيء وتصوره بواسطة شيء آخر، ومن ثم التعبير عنه نحويا بالتئام الألفاظ وتضافرها بصورة خاصة غير دارجة في الاستعمال العام، مما يجعل لكلّ ثقافة اِستعاراتها الخاصة، التي تعبّر عن هوّيتها، بل وأبعد من هذا فلكل إستراتيجية وسياسة استعاراتها، وللحروب أيضا استعاراتها الخاصة التي توجه لخدمة مصالح الجانب الأقوى، إذ "فتح لاكوف وجونسن باب الاستعارة وبناء النّسق التصوري الجديد، لتوعية المتلقي بالخطابات المنتجة التي تبدو حرفية لكنها تطرح استعارات خطيرة لها اقتضاءاتها، ومجازات تعبيرية مموهة لحقائق يقولها خطاب ما وتؤثر في تجاربنا وسلوكاتنا دون أن نعي سمومها، وهو باب في غاية الأهميّة ربطاه بغزو بعض الاستعارات الجديدة لأنساقنا التصويرية، لأنها تتردد في خطابات سياسية سلطوية طامحة لطمس حقيقة ما، تبنيها من خلال الاستعارات المفروضة من قبل من لهم سلطة على العالم"[21]. ولذلك تجتاز الاستعارة التصورات الدلالية والنحوية والتداولية، وتتخطى الحقل اللساني نحو الحقول التي يشتغل ضمنها الفكر عبر وظيفته المعرفية، لتمنح للمرء إدراكا بصريا أصيلا للعالم.

وعليه، يتقيد النسق الاستعاري في إنجازاته التواصلية المتعددة بجملة من القيود التعبيرية والمبادئ المعرفية التي تتحكم في توليده التصوري واشتغاله التصويري. فكما يستجيب التواصل

الإنساني الطبيعي في صيغته العقلانية لمبدأ المعرفة المشتركة بين المتكلم والمتلقي، فإنّ التواصل الإبداعي المجسد في الأنساق الاستعارية يحترم بالمماثلة مبدأ المعرفة الإبداعية الاستعارية المشتركة التي تضمن تحقيق علاقات التفاعل المعرفي بين ملقي البنية الاستعارية ومتلقيها. بالإضافة إلى أنّ الأنساق الاستعارية تحمل في طياتها وحدات دلالية ومعطيات معرفية بمثابة معلومات أساسية في التواصل الاستعاري[22]. ومن هنا يمكن قراءة الاستعارة بوصفها علامة لسانية كاشفة عن الدلالة في الخطاب، تتخذ من اللغة وسيلة لبناء علاقات فكرية استعارية، وبوصفها سيرورة سيميائية تكشف عن الوظيفة الإبدالية للعلامة. ومعنى هذا أنّ الاستعارة "تعدّ أداة لتطوير المفاهيم، ووسيلة لخلق واقع، وليست لتزيين الواقع كما هو الحال في البلاغة القديمة. فالاستعارة؛ صورة ذهنية، يلجأ إليها الفاعل حينما يفتقد خصيصة ما موجودة لدى طرف آخر، ويعمد الفاعل إلى هذا الفعل الاستعاري؛ لإكمال شيء ما يشعر أنه ينقصه، حتى يبدو أمام الآخرين وكأنه يمتلك جميع المقومات التي تؤهله لممارسة دوره الفاعل في الحياة. أما العلامة؛ فهي شيء ما ينوب لشخص ما عن شيء ما من جهة ما وبصفة ما. فهي توجه لشخص ما، بمعنى أنها تخلق في عقل ذلك الشخص علامة معادلة، أو علامة أكثر تطورا"[23].

ولقد تمكنت هذه النظريات، خاصة التي حاولت تجاوز المنهجية التشبيهية الأرسطية، من صياغة عدد مهم من الإجراءات والمبادئ التي اعتمدت في المقاربة البيانية، من أهمها: الأطر والسيناريوهات، الخطاطة، السياق، المعرفة الخلفية، مبدأ التشابه، المدونة، الشبكة الدلالية...

ومن بين الذين ساهموا في إثراء وبلورة هذه الأسلوبيات مجتمعة، بالإضافة إلى المذكورين سابقا، نجد: جاكبسون، رولان بارت، كريماس، بيير جيرو، تودوروف، جون كوهين، نيكوا روفيت، جماعة مو البلجيكية، شارل برلمان، جورج موليني، ميكائيل ريفاتير، جان مولينو، طامين، إرين تامبا، مارك بونوم، سورل، جورج لاكوف، مارك جونسون، أوليفي روبول، أمبرتو إيكو، وغيرهم.

يبدو أنّ أسس الاهتمام البلاغي تغيرت مع الدراسات التداولية التي قفزت بالدراسات البلاغية قفزة نوعية؛ لأنها خطت إلى أبعد من الجملة متجاوزة الطرح اللساني الضيق الذي يبحث عن المعنى الحرفي، إذ اهتمت بالمعنى المشتق وخاصة المجاز، كما درست الاستعارة في أبعادها التواصلية، أي في سياقها الواقعي، ضمن تشكلاتها وتلقيها، وفي استعمالها ومقاصدها؛ لأنّ" الاستعارة نشاط تداولي أساسا، تلح في تركيبها على حضور متزامن للمتكلم والمخاطب ومقام الكلام حيث من خلال تفاعل وتحاج كل هذه الأطراف يكون المعنى ويتبلور الهدف وتتجلى تمثيلية الاستعارة Allégorisme وشموليتها في أسبقية متعددة للدلالات حسب اتجاه سيرورة التداول. وقد أشار العديد من الباحثين إلى أهمية هذا العنصر (عنصر التداول) في اشتغال الاستعارة ونموها"[24]. كما ركزت التداولية على خروج الاستعارة من الاستعمال الحرفي إلى التوظيف المجازي المليء بالمضمرات[25]، التي تحتاج للسياق اللغوي وغير اللغوي لفهم معناها الثاني المتخفي وراء المعنى الحرفي.

وبالتالي، تهتم التداولية بدراسة الاستعارة من حيث هي نشاط لغوي يحقق التواصل بين البشر، وخاضع لظروف إنتاج الخطاب بصفة عامة، متجاوزة بذلك حدود النظرية الدلالية التي لم تتعد في تفسيرها للآلية الاستعارية شقها الدلالي، أي عدها آلية لغوية دون الأخذ في الاعتبار النسق العام الذي يحكم الآلية الاستعارية، الخاضع بدوره لشروط تداولية.

الهوامش والاحالات:

[1]- أحمد الطريسي أعراب: الشعرية بين المشابهة والرمزية، دراسة في مستويات الخطاب الشعري، شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع، 1991، ص4.

[2]- حميد لحميداني: أسلوبية الرواية، مدخل نظري، منشورات دراسات: سال، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، المغرب، ط1: 1989، ص12.

[3]- محمد مفتاح: مجهول البيان، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1: 1990، ص8.

[4]- المرجع نفسه، ص 11.

[5]- عمر أوكان: اللغة والخطاب، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1: 2010، ص 162.

[6]- أحمد الطريسي أعراب: الشعرية بين المشابهة والرمزية، ص4.

* الكوبرنيكية: وهي ثورة علمية، وهذه الثورة حدثت عام 1540 للميلاد، وهي منسوبة للعالم البولندي نيكولاس كوبرنيكوس الذي غير من مفهوم خاطئ كان سائدا، أن الأرض هي وسط الكون والشمس وباقي الكواكب تدور حولها، وقد أثبت أن الأرض تدور حول نفسها. وأن القمر يدور حول الأرض، وأن الأرض والكواكب الأخرى كلها تدور حول الشمس.

وألف بحثا راح يعرضه على أصدقائه وزملائه، وخلاصة هذا البحث أن الشمس هي مركز هذه المجموعة التي من بينها كوكب الأرض. كما ألّف كتاب عدد دورة الأجرام السماوية في سنة 1533 ألقى سلسلة من المحاضرات في روما. عرض فيها مبادئ نظريته دون أن يثير غضب الكنيسة عليه، وعندما أكمل كتابه عن دورة الأجرام السماوية، لم ينشره خوفاً من الكنيسة أيضاً ولم يرَ هذا الكتاب النور إلا يوم وفاة نيكولاس 1543.

[7]- المرجع السابق، ص163.

[8]- أحمد الطريسي أعراب: الشعرية بين المشابهة والرمزية، ص4.

[9]- يقول رولان بارت في هذا الصدد:" وهذا الهدف المعلن عنه يجعل من البلاغة طبعا مؤسسة اجتماعية، والرباط الذي يجمع الشكال اللغوية بالمجتمعات، هو بشكل مفارق، أكثر مباشرة من العلاقة الأيديولوجية المحضة؛ فقد ولدت البلاغة في الاغريق القديمة، بالضبط، من دعاوى الملكية التي تلت ابتزاز الطغاة بصقلية في القرن الخامس، وقد كانت في المجتمع البرجوازي فن الكلام حسب بعض القواعد، وهي في نفس الوقت علامة سلطة اجتماعية وأداة لهذه السلطة، وليس غير ذي دلالة أن الفصل الذي يتوج الدراسات الثانوية للشباب البرجوازي كان يسمى فصل البلاغة." ينظر: رولان بارت: قراءة جديدة للبلاغة القديمة، تر: عمر أوكان، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1: 2011، ص188.

[10]- محمد مفتاح: مجهول البيان، ص64.

[11]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[12]- المرجع نفسه، ص 64-65.

[13]- المرجع نفسه، ص 65.

[14]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[15]- بيير جيرو: الأسلوبية، تر: منذر العياشي، مركز الإنماء الحضاري، دار الحاسوب للطباعة، حلب، سورية، ط2: 1994، ص41.

[16]- ميكائيل ريفاتير: معايير تحليل الأسلوب، تر: حميد لحميداني، منشورات دراسات سال، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1: 1993، ص

[17]-ينظر: صلاح فضل: علم الأسلوب، مبادئه واجراءاته، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1: 1998، ص18-43.

[18]- محمد مفتاح، مجهول البيان، ص7.

[19]- المرجع نفسه، ص49.

[20]- جورج لايكوف ومارك جونسن: الاستعارات التي نحيا بها، تر: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2: 2009، ص21.

[21]- أم السّعد حياة: "الاستعارة التي نحيا ونستعمر بها" المفهوم المعرفي للاستعارة، مجلة البلاغة بين النقد والأدب واللغة، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 2017م، مج1، ص 288.

[22]- ينظر: المرجع نفسه، ص 103.

[23]- عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، ط1، 2010م، ص 179 -180.

[24]- سعيد الحنصالي: الاستعارات والشعر العربي الحديث، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005م، ص 149.

[25]- ينظر: كاترين كبربرات أوركيوني: المضمر، ترجمة: ريتا خاطر، مراجعة: جوزيف شريم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، ديسمبر 2008م، ص171.